Öàc äÉ©LGôe

الناشطية النسوية المصرية المعاصرة

ندج العلي، العلمانية، الجنسانية والدولة في الشرق الاوسط:
(Cambridge, Cambridge University Press, 2000)
حركة النساء المصريات

مراجعة هالة كمال

في مقدمة هذه الدراسة الممتازة للنسوية العلمانية في مصر تبيّن نجد العلي أن اهتمامها الرئيسي موجه الى الناشطية النسائية العلمانية في مصر ما بعد الاستعمار. بتركيزها في هذا الكتاب على الفئات والافراد العلمانية الاتجاه تهدف العلي إلى موازنة الإهتمام المتزايد بالجماهير والحركات الإسلامية كما يتضح من الأبحاث والمنشورات الكثيرة التي صدرت مؤخراً عن الشرق الأوسط، ككتاب عزة كرم النساء، الحركة الإسلامية والدولة: النسوية المعاصرة في مصر (Macmillan Press, 1998).

إطار العلي النظري مبني على نظريات ما بعد الإستعمار ونظريات ثقافية فضلاً عن منهجية انثروبولوجية نسوية. وعليه تتبنى وجهة نظر ما بعد الاستشراق، مظهرة إنها تعي «الخطابات ذات السياق الواحد والمسيطرة» بالاضافة إلى صور «الآخر» المتعلقة بسياسية التمويه. تأخذ العلي على نفسها تحدي تفكيك الهويات (بما فيها هويتها هي)، وربما تعزّز ذلك تجربتها الشخصية بصفتها «عراقية ألمانية» وبالتالي «عربية غربية» إذ تحدد هويتها بانها «موصولة» أكثر منها «منقسمة» (ص٣٧). في إثارة إشكالية هويتها تدرس العلي وضعيتها دراسة نقدية، معترفة بتأثير ذلك في بحثها (ص٣٩–٤٠). بعد أن بيّنت تكافؤ الضدين في هويتها، تنتقل إلى قضية الهويات المصرية الوطنية والنسوية. فبالإضافة إلى تتبعها إنغماس المصريات العلمانيات المعاصرات في الحركة النسائية، بناء على شهاداتهن الشفوية، تحاول العلي أن تبحث في مسائل نظرية أكثر، معيرة إهتماماً خاصاً لفكرة الهوية في إطار النضال السياسي وبناء الدولة. فتقدم «وصفاً أثنوغرافياً مفصلاً لسياق ناشطية المصريات المعاصرة ومضمونها ودلالتها السياسية » (ص٢). دراستها مبنية على مقابلات أجرتها مع عضوات في تجمعات نسائية ومع ناشطات منفردات، جامعة بين الشهادات الشخصية وتحليل السياق الإجتماعي–السياسي لناشطية النساء في فترة ما بعد الإستعمار، معبرة بذلك عن إعتقادها الخاص بأن «الحكايات الشخصية والسير يمكنها أن تكون وسائل تعرّفنا بالأحداث التاريخية والعمليات السياسية والمظاهر الإجتماعية، بقدر ما تعرفنا بها المعلومات الإحصائية» (ص٨٩).

من أهم مميزات دراسة العلي ميلها إلى تعريف مصطلحاتها. تحاول أن تعرّف العلمانية بأن تثير إشكالية المصطلح «علماني»، فتناولته داخل سياقات مختلفة ونظرت إليه من وجهات نظر متنوعة، بما فيها تعريفات هذا المصطلح في رأي اللواتي قابلتهن. وعليه فإن تعريف المؤلفة للعلمانية في السياق المصري المعاصر يكتسب خصوصية خاصة به بمعنى «قبول الفصل بين الدين والسياسة، من غير أن يتضمن ذلك بالضرورة مواقف ضد الدين أو ضد الإسلام»؛ والناس العلمانيو الميول «لا يؤيدون كون الشريعة المصدر التشريعي الرئيسي أوالوحيد، وإنما يعودون أيضاً إلى القانون المدني وإتفاقيات حقوق الانسان...كأطر مرجعية في نضالهم»(ص٤). تعي العلي خصوصية العلمانية المصرية بسبب تاريخ معقد من الليبيرالية والحداثة، بالإضافة إلى تجارب إستعمارية وما بعد إستعمارية.

تجدر الإشارة إلى أنه بناء على تعريف العلي للعلمانية المصرية (المستقى من تعريف من قابلتهن لأنفسهن) يتضح أن الإتجاه العلماني منسجم مع الإيمان بالدين.
كذلك تفضل المؤلفة إستخدام «ناشطية نسائية» على «نسوية». مرة أخرى تبحث في إشكالية المصطلح وعلاقته بسياقه، مفرّقة بين «الحركة النسوية» التي تشغلها الأبوية وحدها في مقابل «الحركة النسائية» التي تشمل الإهتمام بالإستقلال الوطني والنضال الطبقي وغيرهما من القضايا الإجتماعية والسياسية. إلا أنني أود مخالفتها هنا إذ نجد ناشطات مصريات علمانيات معاصرات لا ينفرن من مصطلح «النسوية»، بل يعرفن انفسهن بأنهن «نسويات». فالنشاطية النسائية بهذا المعنى لا تكون فقط فكرة سياسية ضد الأبوية، وإنما تستخدم بمعنى النسوية، أو التوجه النسوي، كنوع من التحليل يتضمن الجندر والطبقة والوطن والعرق، الخ.، إلى جانب كونها ذهنية توجه منظورية المرء وموقفه من الحياة – في أفكاره وأعماله.

تؤكد العلي أن عدداً من الناشطات اللواتي قابلتهن رفضن تسميتهن «نسويات » «لأسباب عملية وأيديولوجية» (ص٤). إلا أنها تدّعي أن «العداء والقلق» اللذين تشعر بهما نساء كثيرات تجاه النسوية على أنها مفهوم غربي يعكس تذويتهن المعنى المنمط للمصطلح. ولكن تبني/رفض «النسوية» كعلامة هوية قد يكون إنعكاساً لعملية أكثر تعقيداً. إذهب إلى أن بعض الناشطات المصريات لا يحجمن عن مصطلح «النسوية» نتيجة تذويت غير واعٍ (ورفضه بالتالي)، وإنما يفعلن ذلك استراتيجياً، واعيات لما يحمله المصطلح من دلالات في مختلف الأوساط المصرية، ولا سيما على أنه مفهوم غربي. إنهن يرفضن المصطلح بهدف كسر حواجز اصطلاحية وفكرية بينهن وبين جمهور مصري معيّن.

تقسم العلي الحركة النسائية العلمانية إلى ثلاث فئات رئيسية. هناك، أولاً، الناشطية لحقوق النساء المبنية على نموذج المساواة الليبيرالي الإصلاحي. وهناك، ثانياً، الناشطية النسائية الإشتراكية التي تعتبر إستغلال النساء جزءاً من عدم المساواة الاقتصادية والسياسية –الإجتماعية المتأصلة في التفرقة الطبقية والرأسمالية والإستعمار. ثالثاً، الناشطية النسوية الراديكالية التي تركز على إشكال الظلم الثقافي والجنسي وتعترف بالإختلاف من غير أن تكون إنفصالية. فيما تتبنى المؤلفة هذا النموذج الغربي للناشطية النسائية، تشير إلى تنوع ناشطية المصريات. ثم تطبق العلي دراسة مولينو لرموز الناشطية النسائية، مصنفة الفئات إلى «مستقلة» و«مرافقة» و«موجّهة» (ص٧)، وهذا يبدو لي نموذجاً أكثر واقعية وينطبق على الجماعات أكثر منه على الأفراد. إلا أن العلي تبيّن، على حق، «أن المنظمات النسائية متقلّبة في مدى استقلاليتها وتبعيتها» (ص٨) ومتأثرة بالدولة، بإمكانية وصولها إلى موارد سياسية واقتصادية، إلى منظمات الأمم المتحدة وإلى وكالات تمويل أجنبية.
في الفصل الثاني تقدم العلي تقريراً عن الحركة النسائية المصرية كما رسمتها الناشطات المصريات المعاصرات في مقابلاتها معهن، وبذلك «تتناول التاريخ من خلال التأويل» (ص٥٥). تركز العلي على السياق التاريخي والسياسي الذي ميّز علاقة الحركة النسائية بالدولة في فترة ما بعد الاستعمار. ومع أنها تستنتج أن معظم التغييرات التي جاءت في صالح وضع النساء حصلت خلال فترات من الأزمات الإقتصادية والإجتماعية–السياسية، إلا أن هذه التطورات لم «تُعطَ» بقدر ما جاءت نتيجة نضال نسائي طويل داخل المجتمع وضد الدولة.

بعد ذلك، في الفصل الثالث، تقدم العلي قصص حياة تسع من الناشطات النسائيات، مع تركيز خاص على تزامن التجارب الشخصية مع التطورات التاريخية. تفسر إختيارها قصص الحياة كعوامل «موضوعية» مثل إختلاف الأجيال، والتوجيه السياسي، والإنتماء التنظيمي، بالإضافة إلى العامل «الذاتي» «كفضول واهتمام شخصيين من قبل الطرفين» (ص٨٧). كذلك تفسر العلي سبب إختيارها «قصة الحياة» لا «تاريخ الحياة» أو «السيرة» بأن الأول أدق في وصف عملية إختيار المقتبسات والمقتطفات الهامة، دقة لا يوفرها تقديم تسلسل تاريخي لماضي الشخص (الهامش ص٨٧). قصص الحياة هذه تقدم تقارير عن تجارب أفراد من النساء داخل الحركة النسائية المصرية منذ ١٩٣٠، والذي كان فترة تميزت بالناشطية النسائية في سياق عمل إجتماعي وخيري. الفئة الثانية تمثل جيل ١٩٥٠–١٩٦٠الذي ولدت ناشطيته داخل التعبئة القومية في عهد عبد الناصر. وأخيراً، الجيل الجديد للنساء في العشرين والثلاثين من عمرهن والذي يعكس الوضع الراهن الذي تميزه الثورة الشخصية وإمتهان الناشطية.

لدى قراءة هذا الفصل يشعر المرء بإعجاب العلي واحترامها جهود الجيل القديم الريادية وانهماكاته الناشطية. ولكن المقابلات توحي بأن جيل الناشطات الأكثر وعياً سياسياً هو الجيل الذي ارتبط وعيهن النسوي بالتزامهن السياسي اليساري منذ الحركة الطلابية في سبعينات القرن العشرين. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه، بصرف النظر عن ناشطية النساء التي تعود إلى أوائل القرن العشرين وإلى ما قبل ذلك، فإن ممثلات الحركة الطلابية هن اللواتي إكتسبن وعياً «نسوياً» ما زلن يظهرنه – ليس فقط إيديولوجياً ، وإنما أيضاً سياسياً وتنظيمياً، جامعات